المبحث الثاني
أساليب البحث في العقيدة الإسلامية

يستند البحث في العقيدة الإسلامية إلى ثلاث أساليب :

- أسلوب علم الكلام .
- أسلوب الاستبطان الصوفي .
- أسلوب السلف الصالح القائم على البحث في الأدلة الثابتة القاطعة في القرآن الكريم والسنة المتواترة .

وفيما يلي عرض مختصر لكل من هذه الأساليب :

علم الكلام :

علم الكلام كان الهدف منه الرد على المتشككين في العقيدة من المناطقة والمتفلسفين والمنكرين وذلك باستعمال حججهم وأساليبهم الفلسفية والعقلية المحضة في إثبات فساد آرائهم والقائمون بهذه المهمة أشبه ما يكونون بالجنود القائمين على حدود الأمة .. يردون عنها المغيرين ـ كما شبههم الأمام أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء ـ إلا أن هذا الأسلوب يختلف عن أسلوب البناء الداخلي لكيان العقيدة في نفس المسلم ، الذي يتعامل بثقة مبدئية مع مصادر الكتاب والسنة ، ويحاول من خلال تتبع أدلة الآيات والأحاديث أن يقيم عقيدته على نحو صحيح لا شبهة فيه لشك ولا شرك .

وجدير بالذكر أن كبار أصحاب المذاهب الفقهية ، كانت لهم تحفظات متشككة في جدوى هذا العلم، بلغت بهم أحيانا حد الهجوم على المشتغلين به.

فقد قال الإمام الشافعي: «لأن يلقى الله ﷻ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بعلم الكلام»

وقال أحمد بن حنبل: «لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا يظن في الكلام إلا وفى قلبه دغل».

وقال مالك: «أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟»[1].

وعن أبي يوسف أنه قال: «العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم».

وقال أبو جعفر الطحاوى: «من طلب العلم بالكلام تزندق»[2].

وكثير من الذين خاضوا في علوم الكلام ، عدلوا عن ذلك وندموا على العمر الذي أنفقوه في سبيل ذلك ، ومن ذلك ابن رشد صاحب «تهافت التهافت» والذي قال :

«ومن الذي قال في الإلهيات شئ يعتد به .. ! »

وانتهى أمر الإمام الغزالى بالإعراض عن المسائل الكلامية ، ومات والبخاري على صدره، وقال أبو عبد الله محمد بن عمر البازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن».

وعلق الأستاذ سيد قطب على هذا العلم بقوله: «مع التعقيد والجفاف والتخليط ..... مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة عن الإسلام، وطبيعته، وحقيقته ، ومنهجه، وأسلوبه»[3].

مما سبق يتضح صعوبة الاستناد إلى علم الكلام في مباحث بناء عقيدة المسلم ، وإن كان البعض يرى فيه فائدة في الرد المنطقي على منكري الإسلام.. غير أن هذا الهدف يخرج عن نطاق البحث الحالي .

علم المكاشفة :

جاء في وصف علم المكاشفة.. أنه :

«عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات...»[4].

---

١) تفصيل ذلك جاء في كتاب «أحياء علوم الدين» للإمام أبو حامد الغزالى – طبعة دار الشعب – صفحات ١٦٤ – ١٦٥

٢) شرح العقيدة الطحاوية – حققها وراجعها جماعة من العلماء – مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر – صفحة ١٢

٣) الأستاذ / سيد قطب – خصائص التصور الإسلامي ومقوماته – دار الشروق القاهرة وبيروت – الطبعة: الشرعية السابعة – تاريخ النشر : ١٩٨٢ – ص١١

٤) الإمام أبو حامد الغزالى – الجزء الأول – إحياء علوم الدين – صفحة ٣٤

ويعتد علم المكاشفة بالمواهب الروحية .. وهى أمور لا يقاس عليها ، إذ إنها تتفاوت بين إنسان وآخر ويتوقف فيها تحصيل اليقين على أن «يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى العيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا»[1].

وكما هو واضح، فإن اليقين وفق منهج علم المكاشفة ، يتوقف على صفاء القلب الذي لا يخلو من تراكم شواغل الدنيا وغبش الحياة عليه ، وقلما يبلغ مرتبة الصفاء النفسي، وحتى وإن بلغ ، فإن ما يصل إليه صاحب المكاشفة يصعب الاستدلال به عقلا ، أو القياس عليه بشواهد علمية ثابتة ، فالمواهب الروحية تتفاوت إمكاناتها بين إنسان وآخر ، و لا مأمن من الوقوع في توهمات نفسية غير حقيقية أو إيحاءات شيطانية .. وذلك بما أدى بالبعض إلى الانزلاق إلى شطحات منفلتة من ضوابط الشرع ، لا يوثق بدقتها ولا بصحتها .

ولم يؤثر عن النبي ﷺ أو صحابته ، أنهم اعتمدوا في أمر عقيدتهم على غير ما جاء في كتاب الله ﷻ ، وما تلقاه الرسول وحيا من ربه سبحانه وتعالى.

وقد عرف تاريخ الفكر الشرقي القديم هذا النهج فيما يطلق عليه تعبير «الغنوصية» التي تعتمد على الحواس .. لا على العقل ، وترفض الاعتماد على النقل والسمعيات ، وتستند إلى السبيل الباطني والرياضة الروحية ، وهى توليفة من «الهيلينة» الإغريقية التي هيمنت على الشرق بعد انتصار الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ق.م.) على الدولة الفارسية القديمة (٣٣٣ ق.م.) وقيام الإمبراطوريات الإغريقية والرومانية التي احتوت أقطار الشرق إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية[2].

وهكذا يصعب قبول أدلة علم المكاشفة ، والتي تستند بالدرجة الأولى إلى الظن الذي يتوهمه صاحبه بأنه يقين، ولا يليق بنا في أمر ديننا أن نأخذ بالظن الذي جاء فيه قول الله سبحانه جل شأنه :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس:٣٦].

وهذا ما دعي علماء أصول الفقه على التعويل في أمر العقيدة فقط على الأدلة قطعية الثبوت ، المتمثلة في كتاب الله ﷻ ، والأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ .

---

١) الإمام أبو حامد الغزالى – المرجع السابق – صفحة ٣٥

٢) الدكتور/ محمد عمارة – معالم المنهج العالمي للفكر الإسلامي – دار الشروق – تاريخ النشر : ١٤٠١هـ – ص ٥١ «بتصرف».

أسلوب السلف الصالح :

أسلوب السلف الصالح قائم على البحث في الأدلة الثابتة القاطعة في كتاب الله ﷻ والسنة المتواترة ، ويمثل هذا الأسلوب .. المدخل الإسلامي الموثق للإيمان بالعقيدة ، إذ يعتمد هذا على البحث عن الأدلة القطعية الثابتة المتمثلة في كل آيات القرآن الكريم ، والسنة المتواترة ، والمتصلة بصفات الله ﷻ ، أو بما اتصل بالإيمان باليوم الآخر .

وهذا التوجه يستند إلى أن الله ﷻ أعرف بنفسه من جميع خلقه ، والصفات الثابتة له سبحانه جل شأنه ، مبنية على النحو الذي قاله وبالمعنى الذي أراده ، دون تمثيل أو تشبيه أو تعطيل .

استنادا لقول الله ﷻ :

﴿.... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

وهذا هو النهج العلمي الموثق الواضح ، الذي يمكن الاعتداد به في معرفة الله سبحانه جل شأنه بما يليق بعظمته وجلاله .

وهناك بعض المصنفات التى جاء فيها ذكر أسماء الله الحسنى ومحاولة التعرف على كل منها ، إلا أن بعضها حاول شرحها باستخدام أقصى أساليب المبالغات الكلامية - وهيهات أن يعبر بشر قاصرعن الله سبحانه وتعالى بما يليق بجلاله .

وخلاصة الرأي .. أن الله ﷻ أعرف بذاته من جميع خلقه ولا يجوز أن نصفه بغير ما وصف به سبحانه وتعالى نفسه ، ولا بأس من الإستعانة بالمعنى اللغوى ، ولكن دون التفريط فى استقصاء المعنى القرآنى الثابت فى كتاب الله ﷻ.